امراء النصر و التحرير

بسمة على صفاف الجرح

قصة الجريح أبو تراب

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

بسمة على ضفاف الجـــــرح

قصة الجريح

أبو تراب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا﴾

العنكبوت/٦٩

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

- **القصة**: بسمة على ضفاف الجرح.
- **الكاتب**: الشيخ محمد سبيتي.

نالت القصة جائزة الوحدة الثقافية المركزية لحزب اللّه

- **الناشر**: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة**: الاولى ـ ٢٠٠١م.

بطاقة هوية

الاسم: لم يأذن بذكر إسمه.. كي لا يغشى صدره ما يغشى.

الكنية: أبو تراب.

العمر: ١٦ سنة.

المستوى العلمي: أول ثانوي.

- التحق بالمقاومة الإسلامية في عام ١٩٩٣.
- خضع لدورات ثقافية وعسكرية عدة.
- جرح ثلاث مرات في عمليات نوعية.
- حائز على تنويه الأمين العام لحزب اللّه.
- يكفيه هويةً.. أنه من البقاع.. خزّان المقاومة

الإهداء

إلى العين الرَّاعفة.. بَدَلَ الدُّموع دماً..
إلى الجُرْح الَّذي.. لا يَلْتَئِم إلاَّ بِجُرْح..
إلى مَنْ.. نَهَبُ لهُ الجِراحَ والأرواح
إلى صاحب العَصْر والزَّمان
أرواحُنا له الفِداء..
أرْفَعُ هذه الكلمات..
ملفوفةً.. بالشَّوْقِ والوَجَعْ..
فَعَسَاهْ.. ولَعَلِّي..

كلمةُ اعترافٍ.. وامْتِنانْ..

ملحُ الأرض دَمُهم .. وغيثُ السماء.. فيضُ جراحِهم

والشَّمسُ هُمْ مَنْ عبَّد طريقَها للشُروق..

أحراراً.. أبدالاً..

انْسَكبُوا في تُخوم الأرض.. لتُشْرقَ بنورِ ربِّها..

وتجرَّدَتْ أرواحُهم مِن دُثُر الفناء لتتزمَّل خميلة الخلود..

وتصيرَ معلَّقةً بعزِّ القدس، وعرش الرحمن..

نفوسُهم في النُّفوس.. أنْفاسُهم في الأنفاس..

وأسماؤهم في الأسماء..

أما حياتهم .. فلها طعم ، ولون لا يرقى لشهْدِه إلاّ ذو حظٍّ عظيم ..

إنَّهم رجال المقاومة الإسلامية في لبنان جاهدوا .. فَسَمَخَتْ الأمَّة بنَبْضِ إبائهم ..

أُثْخِنوا بالجراح .. فكان دمُهم .. زيتَ المصباح حتى طَلَعَ الصَّباح..

وقضوا نَحْبَهم .. وعلى إيقاع العُبور تغنيِّ الجراحُ على امتداد القضية.. أنشودة القيامة.. ورائعةَ الخلاص.. والكلمات من وحيِ الله ﴿ألا إنَّ حزب الله هم الغالبون﴾.

العود الأحمد

ولَكَم تمنَّيتُ على الذكريات أن تستنطق المشاعر، أو ترصِفَ الأحاسيس كلماتٍ لطالما ناءت بحملها مهما وشّحها الأدب، وزيَّنها سِحْر البيان.. لكن أن تبقى الذاكرة عامرة متأججة بما ترْفِدُها العين من بدائع الأحداث، ومفاصل الإباء والأُباة، فذلك ما ليس لك دونه سبيل حيث سرعان ما ينساب شريط واقعةٍ ما تَرَكْتَ فيها اسماً أو تَرَكَتْ فيك رسماً حتى بات الاسم والرسم عنوان الذاكرة ورمز الخيال، ويتراءى مثالاً ونموذجاً فيما كان ويكون، وميزان التوثُّب لأي فعلٍ أو انفعال.. هذا حينما تكون الواقعة مقدَّسةً في مكانها وزمانها، ويكون رجالها أبراراً،

أتقياء، صفاةً وأباة، أضاءت جوانبَهم روحُ اليقين حتى سعى النُّور بين أيديهم بل باتوا نوراً يسعى بين الشَّهد والشهادة في دروب العشق والوصال.

كان ذلك في عام ١٩٩٦ في وقت وصلْتُ فيه لتوِّي من رحلتي العلمية في الجمهورية الإسلامية وتوجَّهْتُ من غير تؤدة إلى الجنوب.

لم يمضِ على وصولي قليل أيامٍ حتى رحت أتحيَّن فرصة التشرّف للمرابطة في محاور المقاومة الإسلامية حيث لفحني وهج الحنين في ليلة احتوشني فيها سريري بإنفة وجفاء، ونبا بي مضجعي دونما رحمة ولا رِفق، وتحجَّرت مقلتاي على دبيب شجى سمج لفّ أطراف صدري حتى راح يخفق له قلبي جذباً قبضاً على وقع العرض الصاخب لبنات ذاكرتي العامرة بالمرّ والحلو من سالف أيامي، فإذا ما وَصَلَتِ النوبة لأحبِّها إليّ، لأعزِّها عليّ، وأكثرها أثراً وأعطرها قدساً على قلبي، تلك

التي ترتبط من قريب أو من بعيد في روحها بالمقاومة أو رجالها أو محاورها أو يمتّ إليها بوشَجٍ أو وشم..

كان حينها شباك غرفتي مشرعاً ينساب منه بين فينة وأختها هبات نيسمات تداعب أعصابي وتوقظ فيَّ ما تبقى من فُتات نعاس في مقلتي حتى كَنَسَتْ منهما ما أمَّلتاه من لحظات سُباتٍ حتى أقعدها صوت الفجر الآتي من مأذنة الضيعة آذناً مؤشِّراً للصلاة «الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا اللّه...»، ومع صوت الآذان وجدتُنَي واقفاً في محراب الصلاة تغمرني هالة خشوع ممزوجة برعشة طمأنينة بلون اليقين، كيف لا تعتريني مهابة المحراب ومشهد الصلاة وقد تراءى آخر ما دار لي في شريط ذاكرتي تلك الأيام المطهَّرة والساعات الشامخة التي قضيتها في الشهور الماضية بين يعاسيب المقاومة في دساكرها وعرائنها ووشوشات

المجاهدين في الكمائن والمراصد ومفارق الأودية ومطاوي الجبال، فما اذكر يوماً أن توقف عقرب الذاكرة على مشهدٍ من مشاهد العزّ في أيامي، إلا وجدْتَني مذهولاً مأسوراً لا أحرّك ساكناً، اللهم إلا دمعة شوقٍ ولهفة تتلألأ على مسرح مقلتيّ وخفقةِ قلبي بنغم الحنين والعودة إلى مرابط النور ومرابض المقاومة طمعاً في مراتب الزّلفى ومراقي الوصل ورضوان من الله أكبر.

وكان الصباح، وقد حَبَتْ ساعاته وئيدة.. ثقيلة لطالما استعجلْتُها مستعيناً على قضْمها بما تيسَّر من تلاوة القرآن، وبعدها بتباتيل دعاء الصباح للأمير عليه السلام.

سبحان من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه..

وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه..

وأتقن صنع الفلك الدوار بمقادير تبرجه..

فما أن أنهيتُ الدعاء حتى بانَ لسان الصبح،

وتسرّحت قطع الليل ووقفْتُ استقبل يومي الجديد، وقد اجتاح لبّي حنين الشموخ، ولهفة العودة، والسفر إلى اليقين.. إلى العرين.. حيث الاغتسال من شوائب المادة، والتعفُّر بخشعة الروح، والتظلُّل بعرش الله المرصوف بفوهات البنادق.. المطرَّز بسواعد الأبرار مشرقاً بجباه المقاومين.

وهكذا كان.. فأول ما كان مني أن تناولت دفتر الهواتف الجيبي دونما الحاجة للبحث عن رقم السيد ساجد (الأخ المولج بنقل المبلغين إلى معاقل المقاومة) حيث كانت الصفحة التي أدرج فيها رقم هاتفه أكثر الصفحات استعمالاً في دفتري.. ولا تتصور أخي القارىء مدى اضطرابي حينما راح جرس الهاتف يرنّ دونما جواب، ودارت رحى الوسوسات في ذهني تؤرقني.. أحاول عبثاً إسكاتها بمعاودة الاتصال، فمرَّة تجيبني عاملة الهاتف بأن الرقم خارج الخدمة ومرّة يرن الهاتف ولا مجيب.

وأسمع صوتي من غير عمد يقول:

ـ يا الله يا ساجد دخيلك رُدّ.

كانت لهفتي صاحبة الصوت، لشوقي للحظة اللقاء بأخوة لي هناك، تربطني بهم عروة الإيمان والجهاد، وحرارة الدم الحسيني الذي لا يبرد أبداً...

طال وقوفي، وضِقْتُ ذَرْعاً من وَخْزِ الانتظار، ولم يبقَ لنجدتي سوى ما اعتدت أن أرجوَه في كل مَلَمّةٍ أو شدةٍ بقراءة الفاتحة لأمّ ثامنِ الأئمة عليهم السلام الإمام علي ابن موسى الرضا عليه السلام مع فاتحة التوفيق... نعم التوفيق للتشرُّف بخدمة المجاهدين والتيمّن بمطالعهم النورانيّة، فليس أجلى، ولا أصدق توفيقاً ونعمة لا تَقلّ عن نعمة الصلاة والزكاة حيث هناك يُنال البِرُّ الذي يرقى فوق كل ذي برّ...

رحتُ أرتّل آياتِ الفاتحة، وهاتفي مشدودٌ إلى أذني أتوسّل جواب السيد وأتوسّم صورته... يا

الله... ها هو صوته المحبب، وكلماته التي اعتاد أن يباشر بها حديثه معي قائلاً:

- أمر يا عيني... أمر يا حبيب قلبي...

مازجاً ذلك بضحكةٍ خفيفةٍ تُضفي على رهافةِ كلماته عذوبةً... وأنا كما اعتدت أن أردّ دائماً:

- بخدمة عينيك يا سيِّد الطيبين... أنا جاهز كالعادة... متى وأين تريد... أنتظرك في البيت شرطَ أن توافيني في أسرع فرصةٍ تراها... فقد نفذ صبري، وألْهبني الانتظار...

وليس ألطف ما سمعت، وليس أغلى على قلبي ممّا قاله:

أبْشِرْ يا شيخ... أنا في طريقي إليك... ولحُسْن حظّك أنّي متوجّه الآن إلى «هناك»، ساعة واحدة وأكون بخدمتك... إن شاء الله...

وبالفعل لم تمضِ ساعة حتى سمعتُ هدير سيارةٍ أمام منزلي في الضيعة ووثبتُ أتصفّح وجوهَ

القادمين... فها أنا أمامه، ومعه ثلاثة أقمارٍ من أبرار المقاومة... أعرف بعضَهم... والبعض الآخر طلّعَتُهم مأنوسة لي، كأنّي التقيتهم يوماً... وتعانقنا... قبّل رأسي... شدّ على يدي بيديه... كرّر ذلك لمراتٍ وهو يردّد:

- يا أهلاً... يا أهلاً... عُدْنا والعود أحمد...

- إي والله يا سيدْ، العود أحمد مما تتصور... همّتك وأنا بخدمتك... من يدك هذه ليدك تلك... وعودة بلا رجعة... وأينما تولُّوا فثمَّ وجه الله...

بين الرهبة والرغبة

دعــوتُهم لقــسطٍ من الراحــة، وتناول طعــام الفطور... حرمني نعمةَ بَرَكَتِهم، وشرف استجابتهم جواب السيد:

حبيبي يا شيخْ... الوقت ضيّق ولا مجال لشيء... فهناك من ينتظر...

ثم استدرك مداعباً:

ـ على كل حــال... لن نوفِّــرك... نأكل أثناء الطريق... والمناقيش على حسابِك...

ـ حبّاً وكرامة... والجميل لكم...

ومن مثلي أيُّها القارىء الكريم، ومن له أن يدركَ غمرةَ الفرحة التي تجتاحني وأنا أناول أحباب الله

وأودَّاءه طعامهم... ذاك ألُفٌّ له منقوشة جبنة، وذلك ألُفٌّ له منقوشة زعتر... وكلّما ناولت أحدهم طعامه أجابني بشَهْدِ الدعاء:

- من يدٍ لا نُعْدَمُها... إن شاء الله تصافحُ محمداً ﷺ يومَ القيامة.

الله أكبر... كيف يمكنك أن تستوعب كرامةَ أن يدعوَ لك شاهد بارّ بأن تصافح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... وما أن تردَّ عافيتك من غشية دعاء الأوّل لتستفيق على دعاء الثاني ببِشْرٍ ووضاءة، وبلهجةٍ فصيحة مليحة صادقة جداً:

- قرَّت عينك بمشهد الأمير على منابر النُّور وكأس الأبرار... يا شيخ...

في حين استقبلني الثالث بدعْجةِ عينيه الذابلتين وخمار الحياء يغطّي وجهه:

- إذا كان لك رغبة بالشهادة فأسْأل الله أن يبلِّغك مقامها المحمود عنده بحقّ صاحب الزّمان ﷺ...

وهنا هزّني شعور أطاح برُشْدي... الشّهادة... الشهادة وأنا!! أَوَ لَيْسَتِ الشهادة تلك المنزلة الرفيعة التي يتحدث عنها أمير المؤمنين عليه السلام ... في قوله:

«وفوق كلّ ذي برٍّ برّ حتى تكون الشهادة في سبيل الله فليس فوقها برّ».

وسبحتُ في خضمّ مقايسةٍ عريضةٍ بين الشهادة وأهليَّتي لها، وبين نفسي والمسافة التي تفصلهَا عن مقام الصدّيقين، والوسام الإلهي ورَسَتْ المعادلة على أني أتوسم خيراً لا لكفاءتي وإنما لرغبتي في الانخراط الحقيقي بجمع هذا الرهط المبارك واعتزازي بقربي منهم وافتخاري بدعائهم وخاصةً الشهادة...

ولا أدري أمستعدٌّ أنا لتبوُّء هذا المقام؟!! فللشهادة واحةٌ من تواضعٍ واستسلام، وطمأنينة، واستعداد، وتجرُّدٍ، وانفلات، وإنعتاق...

وما أفعل أنا... بثقل العنوان المُسْقَط عليّ،

وحجاب العلم، وإنفة الشأنيّة التي أَطْعِمْتُها قهراً في مطاوي الكتب جرعاتٍ خفيفةً تغرز في حنايا الباطن دبيباً مُسِمّاً تُزكّيه منافِثُ الأنا، وكمائن الهوى المتربِّصة في مرافق السالكين... فصحيح أن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء... لكنه في ذات الآن نار وحجاب سمجٌ يُعيق طريق النور، ويمنع إشراقة اليقين، وعُروج الروح، وصَدَقَ روح الله الخميني قدّس الله روحه الشريفة حينما عبَّر عنه بأنَّه الحجاب الأكبر ما لم ترافقه التقوى، ويوائمه الإخلاص سبيلاً للخلاص...

رحت أضرب أخماساً بأسداس... أقلِّب نفسي بين دفتي الأمل والمنى ولعلّ وعسى لأصحو من جديد على صوت السيّد ساجد:

- آلو... نحن هنا... الظاهر انقطع الإرسال... ما لك يا مولانا... أراك قد تغير لونك على سيرة الشهادة... رهبةً أم رغبة؟!

وهنا التَفَت السيد يُمْنة حيث كان يقود السيّارة وأنا بجانبه... مستجمعاً نَفْسَهُ ونَفَسَهُ مستهيباً مخاطبتي ونُصْحي وقال لي:

- عذراً يا شَيْخ نحن أشرفْنا على الوصول... وأنت هناك... «في المحور» شيخ المجاهدين ودورك معهم أن تؤجِّج فيهم عشق الشهادة، وشوق لقاء الله، بخضاب الدم أسوة بأبي عبد الله الحسين وأهل بيته وصحبه... فإذا كان الذي اعتراك رغبة، فهي طريقك إلى قلوبهم، وسبيلك لجمْعهم حولك كفراشاتٍ حول المصباح حتى الصباح... وإذا كان الذي اعتراك رهبةً لذكر الشهادة فالعَوْدُ إلى البيت «ومن دون مؤاخذة» أحمَدُ الأفعال...

آه... لشَدّ ما آلمني ذكر العودة وأنا على مشارف كعبة الجهاد... والطّور المقدس ومعقل الشهادة...

وبعينٍ أسْخَنها الدّمع متراقصاً على مسرحها...

وبعفويَّة المستسلم لهيبة الخواص... الزمان... والمكان... والأشخاص، رحْتُ أردِّد بصوتٍ خافت:

- رهبةً أم رغبة... رهبة أم رغبة...

ونظرت بعدها إلى وجه السيد ساجد وهو يتصفَّح وجهي مشدوداً لسماع جوابي وأنا أقلِّب وجهي في وجوه الأخَوة الباقين... وعلامات انشدادٍ تسود ملامحهم انتظاراً لردَّة فعلي بين الرهبة والرغبة... ودونما شعور أو تكلّف سمعت كلماتي بصوتي:

- اتكلوا على الله يا إخوان... فإذا كان ما اعتراني رهبة، فأملي بكم كبير في تأديبي والأخذ بيدي... وإذا كان ما بي رغبة فأسألكم الدعاء بحسن العاقبة...

بداية المشوار

وبإيعاز من أحد الأخوة المقاومين... كان ينتظرنا على مفرق طريق فرعيّ... أمام مبنىً صغير... أشار إلينا بالنزول، وولجْنا المبنى الذي يُحرَّجُ على شعاع الشمس أن تحظى باختراقه... إلاّ ما رحِمَ ربّي... وسرعان ما وجدنا أنفسنا في بهْو كبير يَنْتشر فيه رياحين شبابٍ يُشرق في وجوههم أُقحوان الإباء ويرتسم على جباهم رونق البيلسان... ولا أبالغ إذا قلت أنك لا تحتاج إلى مزيد تمعُّنٍ أو تجوال في صفحة وجوههم لترسو إلى قلوبهم لشفافية نفوسهم، وتدرك بذلك أنَّك... وبحقٍ أمام رجال الله وأبدال الخلق...

جلستُ بينهم أقلّب النظر فيهم... منثورين في زوايا الدار، بين تالٍ للقرآن، ومتصفّح لجريدة المقاومة والشهداء (العهد) سابقاً (الانتقاد) حالياً... ومتهجدٍ بدعاء، ومنهم من أنهى أوْراده وساعة وِصاله... واستلقى طلباً لقيلولةٍ يستعدّ بعدها لسفرِهِ الطويل.

وحْدَه على عتبة الباب... يتربّع حيث انتهى به المجلس... دون أن يزاحم أحداً بكلام أو مكان... واستدام انتباهي إليه... ووجدت نفسي متّجهاً نحوه من غير اختيار... جَذَبَني سؤدد هيبته، وشدّني جمال هيئته... وقفت حذْوَهُ رابتاً على كتفه بتحيّة الإسلام فانتصب واقفاً... أهالته هيئتي وعمامتي... وأرْبكه أنْ وجد نفسه أمام «شيخ» فأشار إليّ موقّراً مقامي بالجلوس مكانه... وراح يرتب الفراش، ويوزّع الأشياء المنشورة بتطفل هنا وهناك، وأجلسني مكانه... حتى إذا ما استقام مجلسي عاد

وجلس بقربي جلسة المتأهب لتلبية خدمةٍ ما... إذا ما دعت الحاجة...

وتجاذبْنا أطراف الحديث... تاهتْ فيه فراستي وأعْجزني سرّ غَوْره وشخصيّته فإنّه صاحب سرّ وواحد من أهل العرفان الموقنين... ولم أجد على نفسي حَرَج المثول بين يديه استنارةً ببصيرته واستضاءة بحقيقة يقينه.

ولك أيّها القارىء الكريم بعد أن أضع بين يديك فحوى ما دار بيننا أن تحكم بعظيم ما كان وعظيم ما وَصفْت.

فتى.. لكنّه مُوْقِنٌ وحكيم

هنيهة صمتٍ كانت بداية الحديث قطعْتُها بتحيَّتي:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- كيف حالكم؟

- من يجلس هنا ينتظر ما ينتظر.. من نعمة الجهاد والشهادة.. حاله حال الحسينِ عليه السلام وصحبه كلما اشتدّ عليهم الخناق في العاشر من المحرّم ازدادت وجوههم إشراقاً.. شوقاً للقاء الله..

وبصراحة.. أشعرني جوابه بسخافة سؤالي وأربكني باستحضار ما يمكن أن أتابع به الحديث معه.. وبِتُّ متعطشاً لأسمع المزيد، فبادرته ببسمة لم

يكن لهـا مـحل من الإعـراب، إلا عن إعـجـابي به وتعجُّبي منه.. فقلت:

ـ كم عمرك؟

ـ طوله أم عرضه؟

ـ رويدك يا أخي.. أنا شيخ على قدّي ولا أجيد حلّ الرّموز وفكّ الأحاجي.

ـ لا حاشاك يا مولانا.. العفو.. لكن عنيتُ ما قصَدَهُ شيخ الفلاسفة أبو علي سينا وهو على فراش الموت حيث قال له أخوه: لم تُعَمِّر طويلاً يا ابن سينا فأجابه: ليس المهم طول الحياة بل المهم عَرْضها...

ـ فهمت قصدك لكني عنيتُ كم سنٌّك؟

ـ ستة عشر سنة...

ـ أراك هنا.. والمدارس على أبواب الامتحانات؟

ـ عافت نفسي مدرسة الدنيا، منذ عرفت مدرسة الآخرة، فهجرت كتب العقل وجئت أنهل من كتب الروح..

ـ لكن المقاومة تحتاجك صاحب اختصاص خيراً لها من مجاهد عادي، وما انقلاب صورة الصراع بين إسرائيل والمقاومة اليوم وتحوُّل المعادلة لتصبح المبادرة بيد المقاومة إلا نتيجة للمستوى العلمي والفكري للمجاهدين، حتى اعترف العدو نفسه بتحول المعادلة من حرب العصابات إلى حرب الأدمغة...

ـ عفواً يا مولانا.. لم أقصد أبداً أن أقلّل من شأن العلم، ولا أشجّع أحداً على تركه، ولا أرى طريقاً لتحرير بقية المقدسات بعد الإيمان إلا العلم، لما له من دور أساس في وعي الأمة ورقيّها، ورافداً للصمود والإرادة... وإنما جلّ ما قصدته أن الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وطريقي الذي اخترته اختصرته بالجهاد والشهادة ليقينٍ مني.. يغمر قلبي.. أني بذلك أخرج من مدرسة صغيرة تلميذاً عادياً، لأَرِدَ مدرسة الحياة الكبرى التي بناها

الحسين(ع) في كربلاء لأغدو بدمي أستاذاً يتخرَّج طلائعُ الأحرار برَفْدِهِ على امتداد جراحي ويتابعوا الطريق..

ولم أملُك نفسي إلا أن احتوشته في حجري، وأمطرتُه بقبلاتٍ زرعْتُها بين عينيه، وعلى جبهته نشْراً من غير ترتيب، وألقيتُ رأسه على كتفي حانياً رأسي عليه في موقف لم يسبق أن انتابني شعور ملائكي قبله في حياتي، حتى أني ما ظننت يوماً أن تغمرني مشاعر بهذا اللون من الصدق والعفوية التي وَجَدَتْ لقلبي طريقاً من غير استئذان... ورجوْتُ الله في قلبي أن يكرمني بصحبته خلال فترة المرابطة أينما حللت..

سرعان ما تجلّى رجائي واقعاً فقد دخل علينا شاب بهي الطلعة... علائم الحزم والجدية تزمّل تقاسيم وجهه، ومحيط عينيه، وهو يتلو ورقةً بين يديه ينادي كلاً باسمه... أتى على ذكر من حضر..

نادى الجميع.. لم يبقَ إلا اسمي واسم صاحبي...
نظر إليَّ مع ابتسامة شقّت طريقها عنوة إلى فمه مستهيبةً عقدةَ حاجبيه... أشار إليّ بإصبعه:

- الشيخ محمد؟

- نعم .. هو بعينه ..

ثم أوعز إلى صديقي بأن يرافقني إلى الوجهة التي يتم اختياري لها...

في الطريق إلى الله

وبالفعل، فقد كان دليلي إلى المحور الذي انتخبه الأخوة لمرابطتي فيه، لبِسْتُ ثوب الكرامة، ولامَةَ زادي ومددي، وصاحبي في الباب ينتظرني، لم يُشْعِرْني بإحراج، أو يوجّه إليَّ إشارات استعجال أو تذمُّر، اللهم إلا بسمته المحبَّبة التي ألِفَها وجهه، وباتت لوناً من مشكاة طلعته النُّورانيَّة، وتوأم شفتيه المنْفَرِجَتَين أبداً حال بينهما غدير الأذكار المنسابة منهما من غير انقطاع، لا يُطبقهما إلا التقاط أنفاسه من حينٍ لحين ليعودا بعدها للذِّكْر وأقْوَمِ القِيْل...

رحنا نمْخر عباب الوادي مهرْوِلين من غير توقُّف لنتمكّن من الوصول إلى نقطة الانطلاق في الموعد

المضـروب بين دليلي وإخـوةٍ آخـرين، علمتُ حـينمـا وصلنا أنه يطلق عليهم اسم (الأشبـاح) لسرعة تنقّلهم وقدرتهم على الاختفاء إذا ما تهدّدهم هدير الطائرة الاستطلاعيّة التي عجّزوها وأخواتها من الطائرات أن تتلقّف لهم أثراً، ووقفنا أمامهم ننتظر تعاليمهم، وكـان دليلي يتـابع تفـاصـيل المسـير ورمـوز الاتصـال، وفاجأني أحدهم وهو يحمل جعبةً ضخمة يتوجّه بها نحوي وهو يدير بوجهه إلى دليلي سائلاً:

ـ «ما عندك غير هالشب الحلوّ؟»

ويعني بذلك «أنا» ولا أدري ما الذي جعله يتّهمني زوراً «بالحَلَى» وهو يكاد لا يرى وجهي، لأننا حينها كنا قد داهمنا الليل وعسعس الظلام...

أومأ إليّ بالوقوف بعد أن جلستُ أُلَمْلِمُ أطراف أنفاسي... وقف أمامي... أدار ظهري بيديه وهو يُتمْتم مازحاً.. بأعصابٍ غايةً في الهدوء:

ـ «أعطنا قفى ظهرك يا حلو».

فادرت ظهري بغير تواني وبادلته ممازحاً:

- «واحد مثلك حلو».

لكني لم أخمّن أن إعطاءه ظهري سيكلّفني حملَ بعير، وراح يحطّ ذلك الجبل القابع حذْوَ رِجليّه على كتفي وهو يقول:

- بالسلامة... اتكلوا على الله...

وهممت بالاعتراض لأُخبرهم بعَجزي عن نقل هذا الحمل إلى قمة الجبل بهذا الوعر والظلام حيث أعاني من تكلّس في فقرات الظهر، وضعفٍ في النظر، وبالكاد أستطيع الوصول من غير حِمْل، لكنّي عبثاً أحاول... فقد ابتلع اللّيل ظِلال «الأشباح» من غير أثرٍ ولا خبر ولا حَوْل ولا قوّة إلا بالله...

مضينا نتسلّق الجبل ونرتقي تلاله... وكنت بين فترةٍ وأخرى أوْمي لصاحبي بالتوقّف طلباً للرّاحة والتقاطاً للأنفاس... فكان مرةً يستجيب وأخرى

يمانع لعلّمه بطبيعة المكان والظَّرف والمناخ الملائم... فأرجأتُ إليه اختيار أين ومتى نستريح...

وفي كل محطةٍ كنّا نركن فيها كان يبادرني صاحبي بعرْض الخدمة تباعاً:

- أتشْرب يا مولانا؟ هل أساعدك بشيء يا مولانا؟

كانت لهجته الصادقة في عوني عزائي وسلواي بحيث أزاحت الفواصل النفسيّة بيننا «لا أقل من طرفي أنا»، وبتّ أشعر معه بصحبة مميّزة لا أجيد لها وصْفاً...

في إحدى المحطّات... أُقْحِمْنا على الاختباء في ظِلّ شجرةٍ في مطلع الجبل تجنّباً من مرصد الطائرة التي تظهر فجأة تعقُّباً لحركة المجاهدين حيث طال حينها وقت الاستلقاء، استرقْتُ خلالها إلى صاحبي نظرةً هالَني ما وجدْتُه عليه في كل مرةٍ نتوقّف فيها لنستريح حيث يفتح بين يديه قرآنه وقرينه الذي لا يفارقه أبداً يستغل بتلاوته فرصة

الاستراحة، وإذا ما طال بنا المقام يتبعها بكتاب صغير يجمع في دفتيه أهمّ الأدعية والزيارات والأذكار أذكر أنه كان (نور العاشقين).

ولا أنسى صوته، وأنينه، وبحَّة توسله التي تنساب مع تسبيحات الليل على إيقاع حفيف الشجر، وطنين الزيزان، ونسمةٍ عليلةٍ ألِفْناها بين الحين والحين ليشكل كل ذلك أعزوفة العشق، وسمفونية الشوق، ولحن الميلاد الجديد...

حُسْنَيان .. لقاءٌ ودعاء

وعلى باب المغارة... كان العناق... وترحيب الرفاق، ولا أدري أيها العزيز هل حصل أن التقيتَ بأحبّة وأعزّة بعد طول فراق؟

هل أحببتَ يوماً أخوةً لك أنساك حبُّهم نفسك وكل نفيس؟

إذا كان أيها القاري أن شعرتَ يوماً بشغف الوصال، وروعة العودة بعد هجرانٍ طويل وغمرة الفرحة ساعة العناق، فإنك بذلك تقدّر ما انتابني في لحظتي حينها، أقل ما أقول فيها أنها أشبه باستعداد للموت واستسلام لأي ملمّة لأني بذلك بلغتُ ذروة السعادة التي لا تُهاب بعدها مَنيَّة ولا رحيل...

وتحوَّلَت المغارة إلى قفير نحلٍ نشيط... كلٌّ يتبوّأ عمله بانتظام دونما ازدحام، وجلست وبجنبي دليلي... ومن وجْهِهِ النوّار يتقاطر العرق صبّاً..

فما كان يحمله هو أضعاف ما كان معي من أغراض وزناً وثقلاً.. حيث كان يحمل ذخيرة وعتاداً وكان معي بعض الفاكهة، والخضار، ومعلبات، متنوعة لم أتصفح فحواها، رحت أمسح عن وجهه قطرات العرق.. مانعني خجلاً واستسلم بعدها لإصراري وجِلاً.. مسحت وجهه وناولته كوباً من الماء.. أخذ الماء وقد ارتمى رأسه على كتفه إيحاءً للخجل وهو يقول:

- الله يسامحك يا مولانا... نحن من يجب أن يقوم بخدمتك.. على كل حال.. آجركم الله ورزقنا الشهادة معاً...

الله أكبر.. يا الله... للمرة الثانية.. في يوم واحد أحظى بدعاء الطيبين بالشهادة التي ما كنت لأحدِّثَ

نفسي بها إلا بـ (لَيْتَ) حالماً بـ (لعلَّ) وها أنا الآن أكثر أملاً بهذا النَوال بدعاء الموقنين..

ها أنا ذا قد بلغت واحدة من الثمرات التي تهفُّ لها نفسي... وتراني أحدث نفسي بكرامة الشهادة حديثَ غايةٍ ومنى.. وحديث تَيّمٍ وطرٍّ وهوى.. كيف لا... وحولي أخوة أسهل ما يتمنونه لأنفسهم الشهادة التي لَمَسْتُ بعد قصير وقتٍ أنها ملح حديثهم وفاكهة سهراتهم وبُرْدة العرس التي تتوشح بها نفوسهم أينما حلوا وحيثما ارتحلوا..

وهنا اختلستُ بسمةً عريضة بعدها جال ببالي حديثهم عن الشهادة وأنها لهم أشهى من العسل قلت في نفسي والبسمة تزداد اتساعاً مع هزَّة رأسٍ عنوانها الرضا والفخار.

- يا عين.. لو يعلم اليهود حقيقة هؤلاء المجاهدين وما يعتريهم من يقين... وعشقهم للشهادة... لو يدرك الصهاينة حجم الطمأنينة التي

تسكن قلوبهم... لا أظنهم يتوانون في الهرب ذعراً لحظة واحدة دون أن يعقبوا... على كل حال... من قال أنهم لن يفعلوها... على الله... على الله...

خدمة الحُسين عليه السلام

كان الليل قد استحكم، وافتلش ظلامه الدامس، على كل شيء إلا في عيون المقاومين، حيث لا تعرف قلوبهم عتمة، ولا يُغْلِقُ الظلام أمامهم معبراً أو طريقاً، قلوبهم كالمصابيح، كأنها القناديل.. يستضيئون بنور البصيرة، ونار قبس اليقين.. فلا تنتقل لهم قدم حتى تشيِّعها شفاههم لتسديدها بالدعاء الدؤوب (**يا نور المستوحشين في الظلم**) وهو مقطع من دعاء كميل لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يعتبره المجاهدون خير مصباحٍ وأضوء صباح...

أخذ كل مكانه في المغارة، وجلسنا نتبادل نظرات المودة، وغمزات الرضوان وفي عين كلٍ منّا ألف

حـديث وحـديث لا ينتـهي بألف ليلة وليلة.. لكن الصمت حينها والاكتفاء بالنظر المزدان بالبسمات الرقيقة كان أبلغ خطاب...

دخل مسؤول النقطة «المغارة» الذي كان أصغر الموجودين سناً دون أن يمنعنا صغر سنه من الوقوف لمحضره، وتوقير طلعته، وصباحة ملامحه المميزة.. أبهى ما يشدك لاحترامه ذلك التناقض الجذاب الذي يسكن وجهه... مزيجاً من التواضع والذبول والطيبة البلدية وتلك الثلوم العنيدة المفروشة على جبينه يزيد صلابتها بريق عينيه المتوقدتين.. لا تهدآن.. ولا تغمضان.. لعل طبيعة عمله وثقل مهمته تفرضان عليه التأهب دون إهمال السكينة وإضفاء الرحمة على مرؤوسيه من المجاهدين اهتداء بكتاب الله تعالى: ﴿أشدَّاء على الكفار رحماء بينهم﴾.

جلس بيننا بعد أن أعطى الضوء الأخضر لإثنين

من المقاومين لتحضير العشاء حيث كانت (**خدمة الحسين**) من نصيبهم تلك الليلة... وخدمة الحسين عليه السلام هذه نسبة لأبي عبد الله الحسين سيد الشهداء عليه السلام كونه عليه السلام مجمع المحامد وعنوان المكرمات والدليل إلى جزيل المثوبات.. وكون «خدمة الحسين» في مصطلح المقاومة الإسلامية هي الخدمة الدورية للقيام بمهام المغارة من تنظيف وترتيب وطعام ورعاية وخلافه، ويعتبرها المجاهدون وسيلة وقرباناً ومعراجاً ومرقاة يتوسمون به مدارج اليقين ويتوسلون به حضرة الصدِّيقين.. حتى إذا ما وصلت النوبة إلى أحدهم قام بين يدي أخوته من غير تحفظ أو حذر أو أنفة أو حرج يلبي حوائجهم ويحقق رغباتهم أياً تكن وأياً يكون ظرف الزمان والمكان فيها..

هذا وأرجو أن لا يستغرب قارئي العزيز بأن بعضهم بل الكثير منهم يختلس الخدمة من غير نوبة

اختـلاسـاً كـأن يُوهِـمَ الجـالسين مثـلاً بذهابه لقـضـاء حاجة ليتوجّه بخفَّة إلى مجلى المغارة وينظف الأواني مزهوّاً طَرِباً كمن عثر على كنزٍ واستأثر به، أو حظي بعطيَّة بلغ بها مُرادَهُ وورَدَ..

ترابيُّون حتى العَظْم

عذراً أيها الكريم وليعذرني حبيبي ونور عيني وثمرة فؤادي ومصباح قلبي كلما انطفأ في طريقي قنديل اليقين... ليعذرني «أبو تراب» رفيق طريقي إلى صافي بين الخوف والرجاء ودليلي إلى غار البصيرة والولادة بين الرغبة والرهبة... ليعذرني إن أطلت عليه وكشحت بطرفي هنيهة عنه دون الإشارة إليه.. ليس ضنّاً مني، ولا لسهو ألمَّ بي، وإنما تمهيداً لإطلاع القاري العزيز على اللون الأزهى لصورة المقام الذي كان عليه «أبو تراب»..

نعم «**أبو تراب**» هو الاسم الذي يلقَّب به صاحبي والذي أذهلني وقار رسمه عن معرفة اسمه خلال

الساعات التي قضيناها معاً، أما كيف عرفت اسمه؟!! هنا أجدني لا أحب أن يفوتني تسجيل ما دار بينه وبين (أبو راغب) مسؤول النقطة خلف صخرة داخل المغارة في العتمة وهما يتهامسان في وشوشةٍ ملائكية.. هي فوق التسبيح وِرْداً ودونها صلاة العارفين...

أبو راغب: ـ ماذا تفعل يا أبا تراب (عادت حليمة لحالتها القديمة) أرجوك أن تترك هذا من يدك.. ولا تعد لمثلها.. وقد حذرتك أكثر من مرة (خجّلتنا يا أخي) (غرّقتنا بثيابنا حياءً) خصوصاً الآن وأنت تعبان.

وأَسْمَعُ أبا تراب يتنهّد بوجع:

ـ أتركني بربّك.. لا تحرمني فرصة خدمة المجاهدين.. حيث لم أجد لنفسي اليوم فرصة خدمتهم.. يخزي العين!! أكلوا الأخضر واليابس من الحسنات وما تركوا مجال الخدمة لأحد الليلة.. فيا أبا راغب أقبّل يدك.

ويظهر هنا أنه انحنى فعلاً ليقبل يده.. حيث كنت متخفياً.. أسمع ولا أرى.. لكن صوتاً مضطرباً صدر من أبي راغب وهو يقول:

ـ لا..!! وصلت إلى هذا الحد..!! أن تُقبِّل يدي «دخيلك» اشتغل بما تحب وكما تحب واترك يدي وشأنها وأعنِّي على نفسي بالدعاء لي ولا تعن نفسي عليَّ بتقبيل يدي.. وطالما الموضوع هيك فدعني أساعدك...

وهنا أيها العزيز لا أخفي سراً أن صدري امتلأ فضولاً... وزاغت عيناي وأنا ممعن النظر محاولاً الوقوف على طبيعة ما يفعلان وما يتزاحمان عليه فلم تسمح العتمة لي بجدوى لأشبع فضولي بشأنهما... فهزمني التطفل وقتلني التربص وما وجدتُ نفسي إلا واقفاً أمامهما مشدوهاً إلى المشهد الترابي.. الأبي.. السني الذي وقعت عيناي عليه فلم أملك إلا أن جلست بغير تكلف أعاونهما

حيث كانا ينظفان أحذية المجاهدين، ويزيلان عنها الوحل والتراب، ويصبغانها.. وخصوصاً تلك التي كان ينتعلها مجموعة من المقاومين كانت تكمن لدورية إسرائيلية لأيام.. وصَلَتْ لتوِّها، وقد انهك أفرادَها وعرة الطريق، وطول المسافة.. وأجْهَدَهُمْ الترقّب والرّصد، والانتظار.. تناولوا طعامهم الذي وجدوه جاهزاً.. احتسوا أكواب الشاي.. ولجأوا إلى فُرُشهم.. وآخر ما تنام عنه عيونهم بسمات خدام الحسين وأيديهم تزمِّلهم من قَرِّ الجبل بدُثُر العافية.. وعيونٍ حانيةٍ أين منها عيون الأمهات...

أيها العزيز.. أخشى ما أخشى أن أوقعك في آفة التفصيل والشطوح عن المقام.. أو أن أخفق في التعبير لأُتَّهَمَ بعدها بالمبالغة أو «التبهير» «إشارة لزيادة البهار».. في وصفي للواقعة وسردي لها.. لكني ما أملك قوله هو أن مكوثك في أماكن هذا ديدن ساكنيها.. فأظن أن الكثير في الحديث عنهم

قليل، وأن خصالهم ومحامدهم بلغت حداً باتت فيه المبالغة في وصف فعالهم أقلَّ ما يقال عنهم.. وما أبرِّيء نفسي.. إن النفس لمشغوفةٌ بالعاشقين..

وهاك ما دار بيننا ونحن منهمكون (بشغف ولهفة ومزاحمة) بتنظيف أحذية المجاهدين.

أبو راغب: أتدري يا شيخ لماذا أطلقنا على أبي تراب هذا اللقب؟

قلتُ: لا.

قال: هذا ديدنه منذ أن التحق معنا بالمقاومة.. فقد ألزم نفسه بتنظيف أحذية المجاهدين دون أن يسمح لأحد بمزاحمته على ذلك.. طمعاً في الأجر والثواب، ومشاركة للمجاهدين بكرامة جهادهم...

قلتُ: نِعْمَ الفِعال يا أبا تراب فهذا ديدن الأنبياء مع أصحابهم.. وقد ورد عن نبي الله عيسى عليه السلام أنه كان يقول لحواريه: «حاجتي إليكم غسل أقدامكم»...

وهبَّ أبو تراب مغتبطاً وهو يقبِّل جبيني ويقول:

- هه .. هذا حكي.. أهلاً بناصرِنا.. قل لهم «هيك» يا مولانا.. هذا حكي.. ويتابع أكثر اندفاعاً وهو يردّد:

- (يا إخوان من فاته اللحم فلا يَفُتّه المَرَق) فإذا ما حُرمنا نعمة المشاركة في عمل جهادي ما، فلا أقل نستدرك شيئاً منه...

حفّوا.. حفّوا التراب عن الأحذية.

ثم أخذ فردة حذاء بيده وأسارير البِشْر تُشرق في وجهه ودمعته تبرق في عينه وهو يتمتم:

- حفُّوا يا اخوان.. فتّوا التراب بكفوفكم لتنعم عليه في اللحد خدودكم..

الله يعين... الله يعين...

ساعتان في تلك الحضرة الإلهية، ومهبط الملائكة، كانتا كافيتين لإحْداث معادلة جذريَّة في السير والسلوك، وانقلاب لصورة الحياة ومفاهيمها وأولوياتها... ساعتان لم أحتج لهما ثالثة لأفكّ الكثير

من رموز الحياة.. وألغازها.. وقيودها.. وأتحرّر من شوائبها، وزينتها، وأغدوَ خفيفاً.. عارفاً.. مطمئناً.. زاهداً بكل ما أُمِّلت به.. بكل ما توهَّمته عظمة.. بكل ما أوهمنيه المحرومون من الطواف بين الرغبة والرهبة... والخوف والرجاء في معاقل المقاومة على اختلاف مقاماتهم ومواقعهم...

قضمْتُ ثلاثة عقود من عمري ولا زلت أدور في فلك الأنا.. أحور في دوامة ذاتي فراشةً عمياء حول مصباحٍ وهميّ كذوب.. في ضوئه العتمة بذاتها وفي شعلة فتيله ظلام مدقع سرعان ما يطلع عليه وجه الصباح فلا روحاً لي أبقيت ولا جناحاً لي تركت.. ولات حين مندم...

مهلاً أيها العزيز.. لا تذرني وحيداً على مائدة الذكريات.. ظاناً أني أتيت على آخر ما تبقى من سطور المجد والحمية والتراحم... مخمّناً أن ما ذكرته إلى الآن كان ثمالة الشريط وآخر المطاف..

صدقني يا عزيزي وسلواي.. أني إلى هنا لا زلت مرتمياً على عتبة الصفحة الأولى من كتاب عُلاهم.. لا أسمح حتى لنظري التجوال في كلماتهم من غير اغتسال.. أو ألامس القلم لأكتب عنهم إلا بوضوء وفاتحة الكتاب.. حتى أني كلما جلست لأستأنف كتابة هذه السطور.. لم أكتب إلا على طهارة ووضوء.. يقيناً مني أني في محراب البرِّ أكتب صلاة العارفين... وافِني أيها الكريم.. اتبعني فيما أتلو عليك ما تبقى من أسفارٍ وآيات في فرقان المقاومين...

الحُرّ.. وعروس الليل.. والتكليف

من داخل المغارة.. على عتبتها كان يجلس الحرّ(*).. وبين يديه ورقة وبيده قلم جال فيه على الصفحة كرّات وهو ممعن في التفكير.. أما بقية المجاهدين فقد لزم كلٌّ فِراشَهُ.. في ساعة حرة للسمر المفتوح... بعد أن سمعوا في حلقة ذكر نورانية مراسم حديث الكساء ليطلقوا بعدها العنان لتبادل الأحاديث.. وبالطبع دوماً بصوت خافت جداً.. وهذا من بديهيات التعليمات هناك.. فأُذُن العدو لا تنام والاحتياط واجب...

ويقطع الحرّ أطراف الحديث وبين يديه ورقته

(*) الحر.. نال وسام الشهادة بعد ذلك بسنتين.

التي يحدِّق بها باعجاب ونشوة لإنجازه آخر مهامه لليلته بتعيين نوبات الحراسة الليلية لأطراف المغارة وعلى بابها.. وراح يوزع النوبات مزهوّاً.. ولا تتصوّر يا عزيزي كم كان وقْعُ اعتراض الأخوة على النوبات مرّاً على قلب «الحر».. قلت اعتراض.. وهذا لا يعني في قاموس أهل الله غنجاً أو تأفُّفاً أو استكافاً. وإنما للاعتراض في نفوس الأبدال طعم الشهد ورونق الجنة ومنطق العاقلين.. وإليك فحوى اعتراضهم..

كان كل بدوره يعترض على وقت نوبته.. طمعاً بنوبة منتصف الليل وزهداً بالنوبة الأولى لسهولتها وبآخرها كونها أكثر النوبات راحة حيث تكون بعد شوط لا بأس به من النوم والراحة... فكلما أعطى الحرّ لأحدهم نوبة في أول الوقت أو في آخره اعترض طالباً الوسطى لما فيها من جهد وعناء لإيمانهم (أن الأجر على قدر المشقة)..

ونوبة منتصف الليل تعني لأهل الله الكثير الكثير... فمع ما فيه من ثواب المشقة والحرمان من النوم قبلها وبعدها فإن فيها عروس الموقنين وحور الوالهين وشمعة القلوب ومنارة البصائر «صلاة الليل»، هذه النافلة التي أضاءت لهم الطريق وبددت أمامهم الظلمات فأشرقت بها نفوسهم ليشرقوا بوجههم على دنيانا شموساً أشعتها جراح... وحبّات ضوئها بريق دماء...

نعم لهذا كان اعتراضهم... طمعاً في المشقة... وامتثالاً لله في صلاة العارفين ويا لحَال الحر مذهولاً، وقد انطفأ في وجهه زهْوُهُ الذي أقبل به.. يقلِّب إسماً.. ويعدّل نوبة محاولاً إقناعهم وإرضاءهم.. وعبثاً يحاول.. أدار وجهه صوب الباب متوعداً بلهجة ملؤها الإعجاب والإكبار لروحية الإيثار التي تغمر قلوبهم قائلاً:

- يا اخوان.. كرمى لله.. حلُّوها.. واحد يتنازل

للثـــاني... ولمَّا وجـــد منهم إصـــراراً على النوبات الوسطى.. ابتسم.. كـأن انقـدحت في باله فكرة مـا قائلاً:

- أنا بِعْرف ربِّيكم..

وبالفـعل عـرف مكمن ضـعـفـهم وسـرَّ إقناعـهم.. نعم.. أبو راغب والتكليف...

التكليف... ومـا أدراك مـا التكليف في قـامـوس الولاية وأبنائها والمقاومة ومجاهديها...

التكليف.. الحسم والفصل والخضوع والتوقير لقرار المسؤول، فإذا ما توجه المسؤول إلى أحدهم بمهمة أو تكليف أنجز دونما اعتراض أو مواربة... راغـبـاً ممتنّاً لكونه واليـاً عليـه مـفـروض الطاعـة والولاء.. وهذا لا يشبه من قريب أو بعيد مقولة (نفِّذ ثم اعترض) وإنما التكليف يأتي نهاية المطاف.. وآخر العلاج في إنفاذ الأوامر وتعميمها إذا ما أخفقت سُبُل الحوار ووحدة القرار.

وهذا ما تسلّح به «الحرّ» متوجهاً إلى أبي راغب وما هي إلا لحظات حتى يحسم أبو راغب الموضوع وهو يقف بينهم.. ينادي كلاً باسمه ووقت نوبته.. ولم يُعْوِزْه ذلك أدنى جدال أو نقاش ولم يقابل بوجهة نظر، استقبل الجميع نوباتهم بكامل الرضا.. وغبطة لا تقلّ عن رغبتهم في النوبات الوسطى اللهم إلا طلباً تمنَّى فيه أبو تراب على أبي راغب في أن تجمعنا.. أنا.. وهو.. نوبة واحدة.. وردّ مرحباً بذلك وهذا ما دفعني للهمس في أذن جاري «أبو تراب» سائلاً:

- أرى الجميع مسرورين بهذه النوبات كسرورهم بالنوبات الوسطى... فعلامَ كان الاعتراض إذاً؟ فقال لي:

- يا مولانا ضالّتنا الأجر والثواب وهمُّنا رضى الله... فإذا دار الأمر بين أجر الامتثال بأداء التكليف من غير اعتراض وبين أجر النوبة الوسطى فأجر

الأولى أعظم وأجلّ... وفي كل الأحـــوال رضى الله حاصل... (والرزق على الله).

قال كلمته الأخيرة وهو يودّعني مبتسماً... ليخفي بعدها وجهه في الفراش مستأذناً بالدعاء لي:

- تصبح على بصيرة يا شيخ ...!!

وتعجَّبت لدعائه غير المألوف.. فالعادة أن نقول تصـبح على خـيـر.. فـمـا الذي عناه أبو تراب بالبصيرة... التفتُّ إليه مستنيراً.. وجدتّه قد أغمض عينيه عنوة إيحاءً أن لا رغبة له في المزيد...

أسندت رأسي إلى صخرة بجوار فراشي.. وأنا أتصفح خميلة وجهه المسدولة كهدأة اليقين.. وانتبهت بعدها وقد مضى عليَّ ساعة وأنا أسير سرّ هذا الموقن الذي أبى إلا أن يبقى مميزاً حتى قبل النوم...

دفنت وجهي في الفراش.. أردد كلمته على وقع دوامة أسْهَدَتْ جفنيّ تجوالاً عما سأصبح عليه من

نعمة البصيرة التي وعدنيها أبو تراب... وتحوَّلَتْ جملته تسبيحاً ترتّلهُ شفتاي.. ما نسيته كلما احتوشني فراش.. أو جنَّ علي ليل إلى يومي هذا... إلا وأودع صورة أبي تراب في طيفي ووجههُ آخر ما تنام عنه عيناي وعلى شفتي آي دعائه (تصبح على بصيرة يا شيخ)!!!

راهب الليل .. ودعاء الحزين

- يا نور المستوحشين في الظلم...

اللهم صل على محمد وآل محمد .. نورك وسراجك في أرضك

يا رب سترك ورضاك...

كان هذا صوت أبي تراب... وهو يهبُّ من فراشه نشيطاً كأنما لم تغفو عيناه قطّ لم يتثاءب.. لم يتوان في قعوده، حتى قام حيوياً كأنه قادم من مشوار في حديقة غناء...

فتحتُ عيني مستفسراً عما أقلق أبا تراب، وأهجره مضجعه... مع حاجة به إليه...؟! مسح وجهه بصفحتَيْ كفيه يعفِّره بأطايب الذكر:

- اللهم صلّ على محمد وآل محمد..

الحمد لله الذي أحياني بعد موتي

الحمد لله على نعمة الحياة والموت

اللهم صل على محمد وآل محمد... وأَحْيِنا حياة محمد وآل محمد... وأمتنا ممات محمد وآل محمد...

وعلى هذا المنوال كان صوته يغيب وشبحه يغيب معه رقيقاً كنسمة السَّحَر... لفَّته العتمة.. وعلى متنها مضى ولم يعقّب...

كان عقرب الساعة يشير إلى الثانية والنصف... ونوبة أبي تراب في الثالثة والنصف... والعادة أن يتأبّط المجاهد فراشه حتى الثمالة من فرصته فما بال أبي تراب وقد لفظه فراشه.. فقام ينفض طيف الكرى من عينيه...

تُراه أين يكون؟! وماذا يفعل؟!

أزعجني من رقدتي غياب أبي تراب... وَوَأَدَ

النعاس في مقلتي غير آسف ولا مستكف.. وثَبْتُ من نومي متمثّلاً أبا تراب.. مسحت وجهي حامداً الله على نعمة الحياة والموت.. ورحت أتعقب دليلي ومصباحي في الظلام...

يا نور المستوحشين في الظلم.

اللهم صل على محمد وآل محمد.. نورك وسراجك في أرضك...

دَلَّني عليه.. وساقني إليه نفس البَحّة الملكوتية التي أنِسْتُها في تهجّده مشرّعاً «نور العاشقين» بين كَفّيه.. وعلى وقع مناجاته المتقطّعة بحشرجات الأنين والبكاء... جثوت خلف شجرة بلّوط.. أتوسّم من هذا الكريم رشحة رضوانٍ ومسحة يقين.. عسى أن يبلغني الله مقامه المحمود...

كلما توغَّل احتراقاً بوهج ابتهاله وتقلُّبه بين يدي الله تعالى... كلما ازدادت عيناي تجمراً واعتصاراً كفوَّهة بركان سرعان ما أنفجرتا تصُبَّان الدمع

سكباً.. مدراراً يشيِّع في وجهي آخر فُتات الإنْفة والمكابرة التي سُقيتُها بكأس الغفلة.. وتركتُ لنفسي عنان البكاء انسياباً من غير ابتذال...

صوتي يجاري صوته..

والنجم والشجر..

وأزيز الزيزان..

وأصداء الليل

ورشقات نيران متقطعة تتهادى في أعطاف التلال..

وحفيف أجنحة الملائكة ينساب مع نسيمات السحر...

ووجه القمر..

في سهرة نور ونار إشراقاً واحتراقاً على وقع أعزوفة (دعاء الحزين) للإمام زين العابدين عليه السلام عقيب صلاة الليل:

أناجيك يا موجود في كل مكان.. لعلك تسمع

ندائي.. قد عظم جرمي وقلّ حيائي مولاي يا مولاي.. أي الأحوال أتذكّر وأيها أنسى ولو لم يكن إلا الموت لكفى كيف وما بعد الموت أعظم وأدهى.. مولاي يا مولاي حتى متى وإلى متى أقول لك العتبى مرة بعد أخرى ثم لا تجد عندي صدقاً ولا وفاء.. فيا غوثاه.. ثم واغوثاه.. يا غوثاه....».

وتفيض روح أبي تراب بهذا الغوث... ويعفِّر خديه بالتراب... نَعْم التراب.. أنيس أبي تراب.

- حفّوه بكفوفهم لتنعم عليه في اللّحد خدودكم.. منه وإليه.. الله يعين.. الله يعين.

قطرتان.. من ماء العرش

وقف على باب المغارة متقلِّداً بندقيته بكامل جهوزيّته العسكريّة والنفسيّة ممتشق الهامة والقامة.. عنيداً.. زؤوراً.. استحالت خميلته البريئة ثورة تأهب وغضب.. وتحول راهب الليل الباكي على عتبة المحراب.. إلى أسدٍ غضوب على باب العرين.. ومعاً رحنا نزرع الليل آذاناً وعيوناً.. وتحت أقدامنا نفناف الفجر مبثوثاً على أكفِّ الفضاء.. تتراءى بين غمزات غيماته قرى الجنوب قناديل متناثرة كالنجوم.. كأنها السماء مترامية في حِجْر الأرض..

وجنباً إلى جنب مع أبي تراب.. وبين الحين

والحين يغلبني هواي.. وأخالف التعليمات بمنع الحديث أثناء الحراسة.. لكنه أبو تراب.. ومَنْ يقوى على الصمت بصحبته.. خاصة حينما سمعته يكرِّر بصوت خافت من الدعاء عبارة:

«قد عظُمَ جرمي وقلّ حيائي.. يا غوثاه.. يا غوثاه.. بك يا الله من هوىً قد غلبني»..

فأقطع عليه توسله:

- أبو تراب أيها الحبيب؛ عن أي هوى تتحدث؟! وأي جرمٍ وقِلَّة حياء.. وأنت في العقد الثاني من عمرك.. ولم يئن لقلبك أن تلوِّثه الخطايا بعد...؟!

- آهٍ.. آه.. لا يخلو الأمر يا مولانا.. فالشيطان قعيد الصراط.. والنفس أمارة بالسوء.. والهوى غلاّب.. ومَنْ يحصي شاهد.. ومَنْ ذا يضمن اللسان وفلتاته والعين وخياناتها.. والنفس وفجورها.. فالقشة تقصم ظهر البعير.. ومِنْ حَبِّ الحصى تشمخ الآطال...

وهنا وجدتُ من اللازم أن أخفف عن أبي تراب.. وأزيح عن كاهله شبح الخوف وكابوس القلق من الآتي.. تطميناً له وربطاً على قلبه المرهف... وفي نفس الآن حاولت أن أوازن بين تعزيز هذا الورع والخشية لله في قلبه وبين الاسترسال في الخوف إلى حدّ اليأس والقنوط أعاذنا الله حيث أن الإفراط والتفريط في كل شيء مظنَّة السقوط، ومزّلة الانحراف، وتوجَّهت إليه توجه الصديق الصاحب لا الشيخ الواعظ وقلت له:

- يا أبا تراب.. أنت في السادسة عشر من عمرك ولم يمض على بلوغك، ورشدك سوى سنوات ثلاث.. وأنت قبل ذلك وفوق ذلك.. تبلي حسناً كما أخبرتني.. ففي المسجد لك حضور ودور.. وفي صفوف كشافة المهدي ﷺ تمارس نشاطاً فاعلاً.. وفي شُعَب التعبئة لك اسم وفعل وحِرْفة.. ما شاء الله..

فلا أدري.. من أين يكون للهوى فرصة العبث بطهر

نفْسك العصامية.. وأزيدك يا أبا تراب.. أن العرق الذي كان يتصبب من جبينك وأنت تنقل العدة والمؤونة والعتاد للمجاهدين.. كل قطرة منه كفيلة بأن تذيب جبلاً من الذنوب وأن تمحو وادياً مملوّاً بالمعاصي...

يا أبا تراب هذا فعل حبّات العرق.. فما بالك بقطرات الدم الذي في نفسك كامل الرغبة في بذله ولهفةٌ لإهراقه في سبيل الله... فأخال أن قطرة من دم تسقط خالصة لله فهي وأختها ـ قطرة العرق ـ معصورتان من ماء العرش فدونهما عزة الدنيا وكرامتها. وسدرة المنتهى في الآخرة جزاء.. ومنابر النور، وجوار الأمير، والرضوان الأكبر مقاماً وحسن أولئك رفيقاً...

وهنا دغدغ الأمل نفس أبي تراب، وراح يسبح في بحر من الأماني.. هادئاً.. وادعاً.. وبين عينيه حلُمُ جُرْح.. ورتبة شهادة.. وفي نفسه توق لمجاورة الكرام من آلِ محمد ﷺ وصحبه الطاهرين...

عبروا... وحُرِمْت

في حلقة ذكرٍ أشبه برياض الجنَّة... رتَعَنا ومعنا سيـاراتٌ من الملائكة حطّت في ربوع رياضنا... أذَّن «الحُـرّ» لصـلاة الصُّبح، ورفعَ أبو راغب الإقـامـة، وقدَّمني لصلاة الجماعة... أعقبناها بتجديد العقد والعهد والبيعة لصاحب العصر والزمان ﷺ بقراء «دعاء العهد» كما نفعل في صبيحة كل يوم وبنفس البحَّة المأنوسة بصوت أبي تراب.

قـدّمني أبو راغب لأداء مـوعظة من وحي الأجواء بين يدي المجاهدين... ومن الطبيعي أن يأخذ العالمِ أو المبلِّغ دوره في هذا المجال هناك على ما جَرَت العادة... وبصراحة.. وبعد كل ما رأيته من

أخلاقيّات هؤلاء الكرام.. فلقد وجدتُّ بضاعتي مزجاة.. وعلى رأي الإمام الخميني قدس سره في خطاب يتوجّه به إلى العلماء في الحوزات يدعوهم «أن يتشرّفوا بالإلتحاق بالجبهات وميادين الجهاد ليعلّموا المجاهدين الأحكام الفقهيّة والمفاهيم العامّة ويستنيروا بأخلاقهم وروحيّاتهم ويتعلّموا منهم دروساً في السَّير والسُّلوك»...

وبالفعل كنتُ أقدِّم للمقاومين بضعَ كلماتٍ شَغَلَني تزيين رصْفِها عن تعيين صَرْفِها، جمعْتها من بطون الكتب وحواضر البال... بينما كانوا يقدِّمون سلوكاً في التجرّد الروحي والآداب المعنوية ما يبقى في نفسي أبلغ أثراً وأنْفَذ عملاً من ألفِ «قيلٍ وقال».

وكما في بداية كل يومٍ توجَّه بعدي أبو راغب إلى الأخوة يبوِّىء كلاً مكان عمله ومهمّته ليومه الجديد... وراح يوزّع الأُخوة بين كمِين، وتموين، وحراسة، وتدشيم «وخدمة الحسين» عليه السلام في المغارة وحولها...

ما هي إلا دقائق حتى كنتُ قِبالة أبي تراب أودِّعه ويودِّعني، أضمُّه مرةً ويزرع على جبيني قُبلةً مرة، والعين بالعين والقلوب عند بعضها، وبريق عيوننا رسول نبْضِنا المملوء بالحب والدعاء والمودّة، وألف ألف كلمة تنوء بها قواميس العاشقين...

كان عليه أن يتوجَّه مع أخَوَيْن في مهمّة لنصب كمين، لا يعودوا منه «إن عادوا» حتى تمضي أيام لا يعلم لها عدداً إلا اللَّه. رهناً للظروف الأمنية وطبيعة المستجدات، وذلك يعني أن يأخذ الوداع لون الشهادة، ومرارة الفراق العصيب.. ويتكلل العناق بوجع الاشتياق، وتدغدغ لحظة الفراق مكامن شعوري بين رهبة الفقدان ورغبة الشهادة وأبو تراب أهلها ومحلُّها.

كان المشهد بليغاً في كل مفرداته، بالغاً الأقاصي في كل معانيه بين فرحة نابعة من صميم الحشى لا توصف ولا أسرَّ، وبين دمعةٍ ساخنة من

جوى الروح ليس أصدق ولا أسخن... أخفيْتُ بدوري في وجهي دمعة تسلّلت خشية أن يقرأها الواقفون خطأً أو تفسَّر ضعفاً مني ووهناً..

تجلَّدت ما أمكنني.. أو تجالدت... رفعت القرآن بيميني.. وضعته فوق رؤوس مجموعة الكمين.. تلوت في أذن كل منهم آيات الحفظ والصّون:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنَّ الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد﴾.

وراح كلٌّ منهم يقبِّل القرآن ويبارك به جبهته لتبقى شامخةً تزرع دنيانا فجريَّات انتصارٍ وصباحاتِ اعتزاز... وعَبَروا وفوق رؤوسهم كتاب اللَّه، ترعاهم عنايته، وفي أعينهم كلّ الأرض والعهد، وفي قلوبهم سكينة الوعد... وعليه أقسموا **﴿وما النصر إلا من عند اللَّه العزيز الحكيم﴾.**

ساءني استثناء أبي راغب لي، وإعفائي من المهمات التي حظي بها الآخرون وشعرت بلحظة

قنوط أني قد لا أستحقّ كرامة المهمّات المقدَّسة.. أو أنَّ أبا راغب أشفق لحالي ظنّاً منه أني لا باع لي في الميدان العسكري والجهادي، مع أنَّه يعلم أني لم أترك واقعة، ولا موقعاً، حتى ولا «وقعة» إلا زرتها وزارتني حتى أكل الدهر عليَّ وشرب بين المغاور والمحاور والمنابر والمقابر.. وكلُّ هذا بتوفيق من اللَّه ومِنَنِهِ ولطفه، وعلى كل حال فهذا أنا، وهذا أبو راغب وما عليَّ إلا السؤال حتى ينجلي واقع الحال...

- يا حاج أبو راغب، لي عندك عتاب أرجو أن أجد له جواباً.

وقبل أن أكمل استفساري، قاطعني الحاج باسماً وهو يأخذ بيميني ويلفّ على عنقه بيساري مؤذناً بالدخول إلى المغارة قائلاً:

- أعلم ما يجول في نفسك يا مولانا، وغاية سروري أن ترافق أبا تراب ومجموعته لتكون لهم خير أنيس، وأنفع جليس... إلا أنها التعليمات.. من فوق..

وليس مني حيث يحظر علينا السماح للعلماء بالتقدُّم إلى الخطوط الحسَّاسة...

ثم أردف مخفِّفاً عني.. وليوفِّر عليَّ بعض الأسئلة:

- أنتم عملة صعبة يا مولانا.. وإذا مات العالم ثُلم في الإسلام ثلمة لا يسّدها شيء فالمشوار طويل والمقاومون من علمائنا قلّة.. ولا نريد التفريط فيهم.. وبأيّ حال فالتكليف.. من فوق.. وليس مني.. «ويسواك ما يسوانا».

ابتسم وهو يقبِّل جبيني وقال:

- واللَّه نحن مش قدِّ المقام»!!؟

- حاشا للَّه يا حاج.. فيك كل البركة.. وأنا خادم المجاهدين في حلِّهم وترحالهم..

والمدار رضى اللَّه.. وعلى رأي أبي تراب (طَمَعُنا في الأجر والرزق على اللَّه)..

دخلنا المغارة معاً، وراح كلٌّ منَّا إلى شأنه.. وكان شأني إذ ذاك أن أحُور وأدور وأبو تراب، هامةً

ممتشقةً قدّامي لا تغادر مخيِّلتي.. باسماً.. هادئاً.. عنيداً.. راهباً.. أسداً.. باكياً.. ضاحكاً.. وله في كل هيئةٍ كلمة.. وحفظتُ لكل هيئة تمثّلَها كلماتها المحفورة في وجداني لا تضمر ولا تغيب...

حُلُم .. أصدقُ مِنْ واقع

عفوك اللهم.. عفوك اللهم.. أستجير باللَّه.. فقد أخذني النعاس، وحام حولي طيف الكرى.. في قيلولةٍ استرقْتُها في زاوية المغارة.. حرمنيها كابوسٌ هزَّ كياني وأقْعَدني مِن رقدتي، وأنا استعيذ باللَّه من الشيطان الرجيم حيث تراءى لي في المنام شبحُ أبي تراب من بعيد وهو مخضّبٌ بالدَّم.. يلوِّح لي بيده مستغيثاً.. وأنا أركض بقرائح عزيمتي لإغاثته، فإذا ما اقتربْتُ منه.. وجدْتُه باسماً.. هادئاً.. مستأنساً بحاله كأنه لا جرح أصابه ولا إصابةً ألَمَّتْ به..

عفوك اللهم.. عفوك اللهم.. حتى في المنام لا يرحمني أبو تراب من ألغازه وفكِّ رموزه.. عجيبٌ

أبو تراب.. مخضَّب بالدَّم وبسمته على شفاه جرحه..
لا تغادر ولا تغيب.. عجيب أمر أبي تراب.. عجيب..

مضى النهار، وأبو تراب ماثلاً.. يجتاحني بسرِّه..
لا يغادر.. ولا أفتأ أستعيد شريط المنام.. رافعاً إليّ يده مخضّباً بالدم.. يستغيثني.. وعلى شفتيه بسمته لا تغادر..

الدّم.. وسكينة الموقنين..
الجرح.. وتجرُّد الروح يتجلَّى بلون الوجع.
الرضا بالقضاء أسكت صوت البكاء..
والأمل انْسكب بحوض الامل، والطمع بالمثوبة والرضوان..
عجيب أمر أبي تراب.. عجيب.

❖❖❖❖❖

كان البحر غلاّباً.. يشدُّ الشمس إليه.. وهي ترتمي في عُبِّه الهوينى ورحْتُ أذْرع مدخل المغارة ذهاباً وإياباً.. متكهِّناً حال أبي تراب ورفاقه، ومسحة

قلق تطوف على صفحة قلبي.. أتعبني وخزها من حينٍ لحين.. وقد أحدَثَ المنام في داخلي اضطِّراباً.. عبثاً حاولت إبعاده حتى ضاقت به حواشي صدري كأنّما يصّعّد في السماء.

وارتفع صوت الرصاص.. وأشتدّت وتيرة النيران غزارةً.. وتبعَها صوت (الآربي جي) والقنابل اليدوية.. وزخّات القذائف التي كانت تهتزّ لها فرائص الغابة، وتُصَمُّ لها آذان مَنْ فيها.. ويشتدُّ القصف عُنْفاً، واقتراباً حتى بدأ يسقط على باب المغارة.. وتتطاير شظاياه على أمتار من مدخلها.. وأبو راغب على السَّمع.. وأسارير البِشْر يضيق لها وجهه، وبين قذيفة وأخرى يصرخ اللَّه أكبر.. اللَّه أكبر.. آجركم اللَّه يا إخوان يعطيكم العافية.. ويوافيه الأخوة تباعاً بمجريات المعركة.. حيث باغتَ أبو تراب ومجموعته دوريّةً للعدو الإسرائيلي.. وانقضّوا عليه.. وأجهزوا على مَنْ فيها.. وعلى ما عبَّر به أحدهم مازحاً «بين قتيلٍ وقتيل»..

أوّعز أبو راغب إلى أفراد الكمين بالعودة، مكلّلين بالظَفَر المبين.. وَضَعَ الجهاز وهو يصرخ والفرحة تغمر قلبه.. الشكر للَّه.. الشكر للَّه..

احتضنني.. ودمعة الفرحة تتراقص في عينيه.. سجد الجميع بتلقائيّةٍ وجدانيّةٍ سجدةَ الشكر على كرامة النصر.. وراحوا بعدها كلٌ يقبِّل الآخر ويعانقه.. وكلمات التهاني تعبير الجميع.. والحرّ أكثرهم كَيْفاً.. يتنقّل بينهم وهو يقول: مبروك يا إخوان.. مبروك للشهداء.. مبروك لصاحب العصر والزمان ﷺ ومبروك للأمين العام..

ويقطع حفل التهاني.. دبيب غارة لطيران العدو في محيط المغارة.. تبعها غارات.. ومع كل غارة كانت المغارة تتصدّع وتهتزُّ لصخبها الجدران، والآذان ووحدها قلوب المجاهدين بقيت هادئة مطمئنة بذكر اللَّه..

وترتفع حدَّة القصف.. وتزداد غزارةً واقتراباً ولم

ترفَّ لهول القصف لمجاهدٍ عين.. ولم تترك الغارات ورَوْعها في نفوس المقاومين إلا عزيمةً وتصميماً وإيماناً بنصر اللَّه وعناية الحجّة ﷺ.. الذي كانوا يهتفون باسمه مستغيثين كلما إزداد القصف وحشيةً..

يا مهدي أدركنا...

يا حجَّة ابن الحسن.. أدركنا وقت المحن...

ويخرُّ صوت الجهاز.. ويهبُّ أبو راغب.. ويغيب الصوت ويعود.. وتتقطّع الجمل والكلمات.. ويستجمع أبو راغب حواسه ليفهم فحوى الرسالة مع سوء الإرسال ويتبادل مع المرسِل كلمات مرموزة مشفّرة لم أُعرْها إهتماماً ولم أفهم معناها حتى تناهى إليَّ اسم أبي تراب واهتزَّ لسماع اسمه قلبي.. وأرتعدَتْ فرائصي ووثبْتُ أتأبَّط ذراع أبي راغب وأنا أُمْطِرهُ بأسئلتي مضطرباً:

- أبو تراب ما به؟ استشهد أم جرح؟ أين هو؟ ماذا جرى؟

أخبرنا يا أبا راغب

وأبو راغب يشير إليَّ بالتريّث ريثما يقف على واقع الحال، حتى أشار إليَّ بيده يحزُّ بها على معصم يده الأخرى، إشارةً إلى أنَّه جرح بيده ولم يستشهد. وبصراحة لم يهدأ بالي، ولم استعد حالي إلا حينما سمعت أبا راغب يقول:

- اللَّه لَطَف، معجزة يا إخوان، اللَّه خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين، هذه الغارات كانت تسقط على الإخوان.. والقصف كله حولهم يا لطف اللَّه.. وعناية صاحب الزمان ﷺ.

ثم توجَّه إليَّ قائلاً:

- غريب ما الذي بينك وبين أبي تراب يا شيخ!!؟ فقد طلب مني أن توافيه أنت دون غيرك لتستقبله وهو في طريقه إلينا، وقد جُرح في يده استدْرِكْه أنت... وأنا سأحاول استعجال طبيب المحور..

وهنا.. واقع أشبه بحلم

تناولت جُعبتي والبندقيّة، ومضيتُ لموافاة الحبيب، وصورته تجتاحني.. مخضَّبا بالدم يلوِّح بيده مستغيثاً، وبسمته لا تغادر وجهه...

لم أبتعد عن المغارة إلا أمتاراً حتى تهادى إليَّ صوته.. نعم إنه صوته.. إنها البحّة الملكوتية ذاتها عادت إلى إيقاعها.. «**يا نور المستوحشين في الظلم**».. إنه يناديني باسمي.. لكنه لا يستغيث تماماً كما في الرؤيا.. كان في صوته نبرة زهو وانتصار.. وأرهفْتُ سمعي لمصدر الصوت.. وصوته يزداد مني اقتراباً وهو يقول:

- يا شيخْ.. يا شيخْ.. الحمد للَّه.. هنّيني بلغتُ مناي.. بارك لي تحقَّق الحلم..

عجيب.. عن أي حلم يتحدث؟ وأيّ مُنى بلَغَها؟! ماذا يعني «هنيني» «بارك لي» بماذا؟! وعلى ماذا!!!؟ فأنا جئت لإغاثته.. وها هو من بعيد يستعجلني لتقديم التهنئة والتبريك، ها هو.. عاد إلى ألغازه ورموزه... عجيب أمر أبي تراب... عجيب...

وحَثَّتُ الخُطى على وقع الصدى.. ومن خلف شجرة البلُّوط ذاتها، وعلى نفس التَّل..

تراءى لي مخضَّباً بالدّم..

يلوِّح لي بيده..

يتمتم، لكنّه لا يستغيث..

لا يتألّم، لم يُرْبكه جرحه..

لم يتعجَّل الوصول إلى مُسْعفيه..

لم يرتمِ على حمَّالة الإسعاف..

مشى بتؤدة مقبلاً نحوي..

والبسمة ذاتها... على شفاه جُرْحه، وفَمِه..

تعانقنا.. ثم تعانقنا.. ثم تعانقنا.. ثم ارتمى كلٌّ منَّا في حِجْر الآخر، والدمع دوماً حديث المحبين...

رفع إليَّ يده الممزّقة بيده الأخرى، والدّم يُهراق حبلاً عبيطاً لا يتوقَّفُ، باسماً يستغيث ولا يصرخ.. ثم قال:

- الحمد لله.. الحمد للَّه.. لا زال الدّم ينزف، ولا زلْتُ بنزيفه أتطهّر مما عليَّ من تبعات الهوى.. قد وعدْتني يا مولانا.. بأنَّ قطرة دم في سبيل اللَّه كفيلة بغفران الذنوب.. اللهَّم أشْهد أنَّها في سبيلك... خالصةً لوجهك الكريمْ... فإليك منها رطلاً بلون الشَّفق.. يمتدّ على سفح الجبل وحتى عتبة الغار.. ثم رفع يده المفجوعة إلى السماء بتوسل وخشوع وقال:

اللهم هلى أدّيت؟! اللهم هل وفَّيت؟!!

راعني ما رأيت من قدرته على التحمل وابتلاع الوجع، وهو يحمل أطراف يده اليسرى بيده اليمنى

وقد مزّقتها الشظايا، وطحنت عظامها حتى تدلَّت، لا يربطها بمعْصَمه سوى جلدها الذي لم ينجُ أيضاً من لذْع الشّظَايا، ولطوخ أغصان الأشجار وهو في طريقه إلينا.. وقف يقلِّب نظره مرة في يده مزهواً برعاف جرحه، وأخرى بوجهي ليشهدني على جميل ما أبلى، وجزيل ما بذل.. وعلى شفتيه البسمة ذاتها لكنَّها أكثر إشراقاً من ذي قبل.. ولعلَّها صفرة وجهه الشاحب بفعل النزيف وانخطاف الحياة في خدّيه لما لاقاه من جهدٍ، وسَيْرٍ، ولهيبِ جراح...

وَهَبَني سِرُّهُ.. قطرات دم...

انحنيْتُ أمامه لأرفعه على كتفي إلى المغارة.. وكالعادة مانَعَني خَجِلاً فلم أعِرْهُ اهتماماً... فليس الوقت وقت مجاملةٍ.. حملته ورحت أركض فيه وكأنَّ الشظايا التي شقَّت يده حزّت نياط قلبي، وقطّعت أوصال روحي.. فلم أتعثَّر ولم أسقط ولم أتوانَ.. كان خفيفاً كظلّه ودَمِه..

كنت أهرَوِل من غير توقفٍ، أو ترقُّبٍ رحمةً بجرحه، ورأفةً بحاله، فأحنى رأسه على أمِّ رأسي محاولاً النظر إليَّ وهو فوق ظهري. ثمَّ قال:

- على مهل.. لسنا مستعجلين.. إلا إذا تَعِبْتَ يا مولانا.. وخدمةً للَّه تمهَّل، ولا تحرمني كرامة

انسكاب هذا الدم.. ودعني أترك بكل قطرة شاهداً.. وعلى كل حجرةٍ مَعْلَماً.. وألوِّن بهذا الدم وجهَ الأرض.. ووجنات الصخور.. وأرسم بخيطه معالم الطريق.. وقبلة الظّفر.. ووجهة باب الجنَّة لخاصَّة الأولياء.. فينظروا دمانا بَعْدنا ويتابعوا الطريق، إلى الدرع المتين، والجنَّة الوثيقة..

وقبل أن نردف إلى المغارة.. لم أنجُ من دعابته حتى في حالٍ كحاله فرفع يده النازفة بيده الأخرى صابَّاً بضع قطرات منها على رأسي لوَّن بها وجهي وهو يقول:

- وهبتُك هذه القطرات قربةً إلى اللَّه تعالى.. لوجه اللَّه.. لا أريد منكم جزاءً ولا شكوراً.. هدية متواضعة من أخيك الصغير.. وخير اللَّه كثير.. الحمد للَّه.. الحمد للَّه..

وبهذه القطرات.. لوَّن دمه دمي.. وضخَّ في عروقي دماً جديداً.. وميلاداً جديداً.. اشتعلَتْ

لصفائه قرائح الرّغبة، وحطَّمت في نفسي قيود الرّهبة.. واستحلْتُ إذ ذاك كتلة غضب تستعِر... ولا زلتُ من يومها أرشِّح نفسي بامتياز لمشروع شهيد.. فقد ربَّاني أبو تراب، أدَّبني دمه.. روَّضَتْني بسمتُه العائمة على ضفاف الجرح.. لا تفتر ولا تغادر..

وَجَعٌ.. بلونِ القضية

فيما كان الطبيب ينظف جرح أبي تراب.. كان زعيق الطائرات الإسرائيلية يملأ الأجواء صخباً وهولاً... أما أبو تراب فكان يُهْمِل النظر إلى جرحه.. ولم يُعِرْ ألَمَهُ اهتماماً.. نَظَرَ إليَّ، ثم قال:

- شتّان بين المشْهَدَيْن:

- أي مشهدين!!؟

- مشهد الطائرات الإسرائيلية وهي تزبد وترعد لتُظْهِرَ جبروت إسرائيل وعنفوانها في الجوّ لأنها في مأمن من بطش المجاهدين.. أما في المشهد الآخر.. في الميدان.. وجهاً لوجْه في احتدام مع المقاومة.. فلا تسمع إلاّ عواءهم، ونواءهم وصريخهم

وبكاءهم، فما أن يتناهى إلى أسماع جنود (الجيش الذي لا يقهر) صرخة مجاهدينا وهم ينقضّون كالحيادرة فيما هم ﴿**كالحُمُر المستنفرة فرّت من قسْوَرة**﴾ فصرخة «**الله وأكبر**» تعني في قاموس الجنود الإسرائيليين موتاً زعافاً، وقتلاً وهولاً ورعباً، تسقيهم فيه المقاومة حتوفهم المحتومة من غير وَجَلٍ.. فقد رأيتهم اليوم بأمّ عيني وعلى كل حال ليست المرة الأولى... وهذه عادتهم... أنهم يتسابُّون.. يلعنون الساعة التي قادتْهم إلى لبنان... ويلعنون قادتَهم الذين أرسلوهم إلى لبنان.. ويتراشقون السباب والرصاص بهوس وخَبَل.. وقد استحكم الرّعب، والجبن، والذعر في أمّ نفوسهم حتى ليتمايلوا سكارى وما هم بسكارى.. لكن بطش المقاومين لشديد.. وصدق الله سبحانه في كتابه إذ قال فيهم: ﴿**أحرص الناس على حياة**﴾.

وهنا كان الطبيب ينزع القميص الممزّق عن بدن

أبي تراب ليعالج ما أصابه من خدوش وجروح.. وأي بدنٍ لأبي تراب كان يخفيه هذا القميص..؟!

كانت الكرامات والمقامات المحفورة على صدره جراحاً ونياشين مفترشة بين أضلُعِه بإصاباتٍ عديدة في عمليات مختلفة...

لم يحدِّثنا عنها أبو تراب.. لم يذكر منها شيئاً.. خَمَّنَّاهُ مقاوماً عادياً، حديث العهد لشدَّة صمته، وطَوِّيهِ لمآثره، ومحافل بطولاته.. فإذا به عتيقاً مخضرماً.. عباسيّاً في كثرة جراحه.. عابسيّاً في جنونه بحب الحسين عليه السلام وعشق الشهادة بين يديه.

نظرت إلى خارطة الصراط والاستقامة المرسومة بخيوط جراحه على بدنه النحيل مكْبِراً فيه إخلاصه وتفانيهُ وإباء نفسه، وقلت له:

ـ أظن إنها ليست المرّة الأولى التي تُجْرح فيها يا أبا تراب؟

ـ عفواً يا شيخي.. أنا لم أُجْرح قطّ.. وليس

إسرائيل ومَنْ لفَّ لفَّها مَنْ يجرؤ على جرح مقاومٍ أو مؤمن يعتصم بالله..

ها هو عاد إلى ألغازه ورموزه.. ما عساه يعني هذه المرة.. عجيب أمر أبي تراب عجيب فأصغيت إليه لأقف على مراده وما هو الجرح في مفهومه، فتابع يقول:

- الجرح الحقيقي.. الكبير.. النازف.. الأليم.. هو جرح الكرامة والدين والأرض والعرض والمقدسات جرحنا الكبير قدسنا الأسيرة.. ووجعنا المرّ سَوْقُ شعبنا الأبيّ الحر في فلسطين، وذبْحُه في حواشي المقاصل أضاحيَ دمٍ لفطير صهيون..

يكبر الجرح حينما يُستَهان بالعرض، وتستباح الأرض..

ويزيده إيلاماً أن العالم يشهد عبيط دمنا الذي خضّب شاشات الدنيا ومناظيرها ويسمع صوت احتضارنا كلُّ الرعاة والدعاة لحقوقنا.. وكل ما

قدّموه أن كمّوا أفواهنا كي لا تستفيق على صرختنا ضمائرهُم، فيُجّبروا على الجهاد وهو كره لهم، فبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، والتعرّب بعد الهجرة، والفرار من الزحف، وعلى أي حال، لا يفلُّ الحديد إلا الحديد ولا يُدّمِلُ الجرح إلاّ الجرح..

وهنا تمثل مستأنساً بصوت خطابيّ بكلمات للشهيد السعيد فتحي الشقاقي «مؤسس الجهاد الإسلامي في فلسطين». في كلمة له يستنهض فيها الأمة للجهاد:

- دم يلوّن الأفق.. دم يلون التاريخ.. دم يلون الدم.

ثم نظر إلى جرحه الذي برد وبدأ يُوْخِزُهُ ألَمَاً وهو يخاطبه قائلاً:

- صبَّ أيها الجرح خالص الدم فالرصاص سبيل الخلاص.

كنا نصغي إليه، وكلماته الصادقة صاغها قلبه، وفي صدره خمائل جراح، وأوسمة كفاح.. وجرحه

الأخير فاغراً شفتيه.. مشرّعاً ضفافه..

وعلى ضفاف الجرح تعوم بسمته.. لا تغيب ولا تغادر..

أبو تراب أيها الصدِّيق.. لئن قرأت كلماتي هذه.. فأسألك خالص الدعاء والشفاعة فإن لك عند الله شأناً من الشأن..

والسلام..

أخوك الشيخ محمد...

أختم لأقول

عزيزي أيها القارىء الكريم:

لم تكن كلماتي حمّى ذكريات قرَّت نفسي بذكرها..

ولم تكن طفرةً لدورة شريط الماضي.. تَمَثَّل ومضى بلحظةِ حماس..

ولم أكتب إذْ كتبت.. لشهوةٍ اعترتْني في الكتابة، أو هوايةٍ استَفَزَّتْنِي للمنافسة...

وحتى أنّي لستُ مُحْتَرفاً في سَرْد الرّوايات.. أو حكواتيّاً يعشق القصص...

لكني..

أحاول أن أدْلَوَ دَلْواً.. أن أُحَرِّك ساكناً.. أو أُحْدِث صوتاً في آفاق خيرِ أمَّةٍ أُخْرِجت للناس..

أحاول أن أقول:

أن أمَّـةً هـذا تاريخـهـا.. هـذا كـتـابهـا.. هؤلاء شهداؤها..

من بدرٍ، وأحـد، وخـيـبـر.. إلى صـفين والنهـروان وكربلاء.. حتى إيران ولبنان وفلسطين.. من قبلُ ومن بعدُ..

إن أمـةً.. لا زال عـلى ترابهـا المـلايـين مـثل أبـي تراب بكامل خِـصـاله لَهي أُمـة.. عـزيزة مـقـتـدرة منتصرة..

والرهان:

مـا راهن عليـه الأمين العـام لحـزب الله سمـاحة الحجة السيد حسن نصر الله إذ يقول:

(هذا وعـد التـوراة وأنتم تعـرفـونـه.. وهذا وعـد الإنجيل وأنتم تقرؤونه).

وهذا وعد القرآن ووعد الرسـول (إسـرائيل هذه.. ستزول من الوجود حتماً).

وعلى هذا الرهان.. أشار بوعده الصادق وعزمه الذي لا يلين وهو يزرع الأمل والعزيمة في نفوس شعبنا الأبي في فلسطين بعد الانتصار المظفر في جنوب لبنان بدحر العدو الإسرائيلي عام ٢٠٠٠ في الخامس والعشرين من أيار في كلمته الشهيرة التي أجَّجت سعير الانتفاضة وأذكت وأجّجت الملايين من شعوب أمتنا الأبيّة حينما قال:

(نحن في حزب الله معكم.. وسنبقى إلى جانبكم.. ولن نترككم ويمنكم في الشدائد أن تراهنوا علينا)..

ثم رفع بيده التي باتت كفُّها بيدرَ التحرّر على امتداد القضية والأرض وقال:

وكفـــــى...

ملحق ساقَهُ الله.. بُشرى لخير ختام

- والقصة في طريقها إلى المطبعة.. زفّ إلينا تلفزيون المنار نبأ عملية استشهادية لأحد مجاهدي حركة حماس

المبـاركـة يُدعى مـحـمـود مـرمش صلى صـلاة الفـجـر واشـترى لأمـه حلوى لعـرس شـهـادته ثم فجّـر نفسـه في متجرٍ يهودي في أحد شوارع ناتاليا في فلسطين ما أدى وحتى اللحظة التي ابتلعت فيها المطبعة هذه الأوراق إلى سبعة قتلى ومئة وعشرين جريحاً...

(وحبل المشنقة على جرّار المقبرة)

ألم أقل لكم.. أبو تراب.. على ترابنا مثلهُ الملايين

﴿إن تنصروا الله بنصركم ويثبت أقدامكم﴾.

يوم الجمعة ٢٠٠١/٥/١٨